مدخل

يمكننى أن أقول إننى لم أعرف إلا شعبًا واحدًا فقط شعر بأنه قادر على تأكيد أنه قد تلقى أمرًا إلهيًا باستئصال جميع الشعوب التى يقهرها، ألا وهو شعب إسرائيل. ويتفادى اليوم كل من المسيحيين واليهود على حد سواء التمعن فى قساوة يهوه [Jahweh] (الله بالعبرى) التى تكشفها ـ ليس المصادر المعادية ـ ولكن الأدبيات التى يعتبرونها مقدسة. ويسعى كل من المسيحيين واليهود ـ كقاعدة عامة ـ إلى تناسى حتى وجود هذه المادة التجريمية.

«من سانت كروا فى سعيد ١٩٨٨ : ١٦٦».

موضوع هذه الدراسة هو تناول رواية الكتاب المقدس بشأن وعد إبراهيم وذريته بأرض كنعان ؛ وتجديد هذا الوعد لموسى وقومه بعد خروجه من مصر. هذا بالإضافة إلى النص المتعلق بغزو هذه الأرض مثلما تم روايته فى سفرى يشوع و القضاة. كما ستتناول هذه الدراسة الطريقة التى استُغلّت بها هذه النصوص من الكتاب المقدس لتبرير غزو الأراضى فى مناطق عديدة و أزمنة مختلفة، لا سيما أثناء الاستعمار الإسپانى والبرتغالى لأمريكا اللاتينية، واستعمار البيض لجنوب أفريقيا، بالإضافة إلى غزو الصهاينة لفلسطين و المستعمرات اللاحقة. ولا يمكن مناقشة هذا الموضوع إلا باللجوء إلى عدة تخصصات.

إن تداخل التخصصات الأكاديمية وتعدد فروعها أوضح صعوبة الإلمام بموضوع شائك كهذا من وجهة نظر واحدة وتناوله من زاوية واحدة فقط. ويمثل تناول الاستعمار مثالاً جليّا عن هذه المشكلة. فالقانون الدولى يتناول الحقوق الشرعية المتعلقة بالسيادة، وتتعرض الاتفاقيات الدولية إلى حقوق الإنسان، أما علم الاجتماع والأنثروپولوچيا (علم الأجناس البشرية) فيدرسان ما يتعلق بالثقافات المختلفة والهوية السياسية والدينية للسكان الأصليين. ولا نستطيع أن نغفل المناظير الدينية و اللاهوتية.

وما يشتت الأفكار فى تناول متنوع مثل هذا التناول أن كل عنصر فيه يُطرح بصورة مستقلة عن بقية العناصر. فالفكر اللاهوتى لا يذكر شيئًا عن القانون الدولى، والقانون الدولى يصمت عن مسائل تتعلق بحقوق الإنسان. ويبتعد المدافعون عن حقوق الإنسان عن أى مبادئ وراء تلك المتفق عليها عالميًا. أما علماء الاجتماع والجغرافيون، فيهتمون بوصف الأحداث دون إطلاق أحكام عليها. ورغم كل هذا، فإن كلاّ من هذه التخصصات(وتخصصات أخرى طبعًا) لا يمثل إلا مظهراً واحداً من صورة أكثر تعقيداً.

وحاليًا أدى التخصص والتدقيق العلمى فى كل علم من العلوم بالذين ليس لديهم خبرة فيه إلى أن ينسحبوا من المناقشة. فالعلماء يُخيفُون غيرهم من غير الملمين بعلمهم؛ حتى الباحثون الأكثر براعة نادراً ما يخوضون فى مواضيع بعيدة عن حدود تخصصهم.

وهناك توجه عام إلى القول بأن هذه المجالات هى من شأن المتخصصين فقط؛ لتبرير الهروب من مسئولية الخوض فى عالم أكبر، بحجة أنه حتى مناقشة القضايا الأخلاقية يجب تركها للمتخصصين. ويقع كل علم يتناول مسألة أرض كنعان فى الكتاب المقدس فى فخ التخصص؛ حيث لا يهتم علماء الكتاب المقدس فى تناولهم لمسائل نقد تاريخية الكتاب المقدس وحرفيته، بالأبعاد الأخلاقية. وبصفة عامة، فالباحثون المعنيون بحقوق الإنسان يتجنبون الرجوع إلى مسألة الله، رغم أنهم يعترفون ـ روتينيًا ـ برابطة أرض الوعد بالله. أما الخبراء فى السياسة فيتناولون الموضوع من وجهة نظر السلطة السياسية والمصالح.

كل هذا يؤدى إلى تناول ناقص وغير متكامل للموضوع؛ لأن كلاّ يدرس الموضوع من وجهة نظر تخصصه دون أن يتصور مدى تعقد الموضوع. وحتى عند التعرض لنصوص الكتاب المقدس فى المناقشة، يجب أن يتحلى الدارس بالشجاعة للتعرض إلى عدة مظاهر. ولا يمكن لأى متخصص أن يجرؤ على المخاطرة بدراسة تخصصات أخرى متخمة بدراسات وتحاليل علمية لا حصر لها: قصص البطاركة، وعلم الآثار، والتاريخ، والمسائل الأدبية للنوع والاختلاط، وفترات النفى أو وجهات النظر حول

الأرض فى العهد الجديد . . إلخ . وإذا حاول أى كتاب أن يتناول فقط الرؤية الكتابية فعليه أن يجمع فريقًا من الباحثين (مثلاً التسعة عشر باحثًا فى فريق برودكى ١٩٩٥) . فالمهمة صعبة للغاية بالنسبة لفرد واحد، إلا أن الخيار الأخلاقى يرجع للفرد .

تتناول هذه الدراسة ـ على وجه الخصوص ـ المسألة الأخلاقية التى أثارتها عواقب الغزو والمستعمرات على السكان الأصليين . ما هى المعايير المناسبة لتقييم حركة غزو واستعمار؟ ما هو دور الكتاب المقدس؟ وهل يجب علينا أن نسترشد فقط بمعايير احترام الإنسان التى تنص عليها اتفاقيات حقوق الإنسان، أو اتفاقيات القانون الدولى؟ ويبدو أن إخضاع الكتاب المقدس لتقييم أخلاقى على أساس المبادئ الأخلاقية العامة، هو أمر جديد مقارنة بالتناول التقليدى للكتاب المقدس الذى عادة ما ينظر إليه على أنه نموذج الكمال الأخلاقى، ويتجسد فيه روح اللاهوت . وكما سنثبت ذلك فيما بعد، فإن دراستنا هذه ليست فقط لها ما يبررها، بل و أيضًا ضرورية . فعندما يتم نزع ممتلكات شعب و تشتيته وإهانته، يُستثار حسُّنا الأخلاقى . وعندما يتم ممارسة مثل هذه الأعمال الوحشية بزعم أنها مؤيدة إلهيًا ، بل و أنها أمر من الله ، لا نستطيع إلا أن نعبر عن رفضنا لهذا الرعب والهول . إن أية فكرة تزعم تعاون الله فى تدمير البشر يجب أن تخضع لتحليل أخلاقى . إن التعارض الواضح بين ما يزعم البعض أنه إرادة الله، وبين التصرف الإنسانى المتحضر والجدير بالاحترام يطرح ـ بشكل واضح ـ مسألة هل الله شوڤينى (وطنى متعصب)، وقومى، ولديه هلع مرضى بإشعال الحروب؟

لكن وبشكل عام، تجنب التفكير اللاهوتى ـ تمامًا ـ مثل هذه الاعتبارات . ورغم ذلك، فإن الخطاب الصادر عن الدراسات الخاصة بحقوق الإنسان والقانون الدولى يمضى دون تفاعل مع الدين واللاهوت . وهدفى فى هذا الكتاب هو تحديث دراسة لنص مألوف لدرجة أنه يقاوم أى أبحاث جديدة . تفترض أية دراسة للكتاب المقدس الرجوع ـ حتمًا ـ إلى المنظور الأركيولوچى (فوكو)؛ فما يُحتمل أنه ساعد فى الماضى على إرساء أسس متينة، أصبح الآن موقعًا مفتوحًا وأفسح الطريق لإجراء أبحاث جديدة، وأثار عدة تساؤلات جديدة . النقطة الحاسمة فى هذا الصدد هى سلطة الكتاب المقدس فى التأثير على السلوك البشرى على مستوى الأمم . ونعلم جيدًا أنه لم يتغير أى مجتمع بسبب عامل أيديولوچى واحد فقط، سواء كان اقتصاديًا أو وطنيًا أو دينيًا . «إن تفسير أى تطور تاريخى ذى أهمية بعامل واحد فقط، هو فى الواقع خطأ» (لونسدال ١٩٨١، ص ١٤٠)؛ إذ تتطور النظم بتفاعل عدة عوامل .

وباتباع منهجية تتفق مع البحث فى دراسة تضم عدة عوامل، نستطيع أن نستند إلى مبدأين من نظرية «الكم» وهما التتام واللايقين. يزعم مبدأ التتام لـ «بوهر» أن التعريف التقليدى للحالات وفقًا للمكان أو الزمان غير كاف؛ وأنه فقط عندما نجمع هذين العاملين المتتامين سنحصل على صورة حقيقية وكاملة حتى للعالم الفيزيائى. وعلى مستويات أكثر تعقيدًا، هناك عوامل مختلفة بل متعارضة تتكامل لوصف آلية معقدة. ومن جهة أخرى، يوضح مبدأ اللايقين لـ «هايزنبرج» أنه لا يمكن فى أى وقت من الأوقات إلاّ أن نحلل عاملاً واحدًا من نظام: ليس من الممكن تأكيد كل من وضع الجسيم والقوة الدافعة له. وهذا مأزق، حيث إنه حتى الملاحظة تزعج نظام الحركة على الأقل على مستوى الذرة.

أقترح دراسة الكتاب المقدس فى سلسلة أحداث بشكل يسعى إلى تقدير الظروف الاجتماعية و السياسية المعقدة لكل حالة. وهذه الدراسة واسعة؛ لأنها تناقش الكتاب المقدس و تفاسيره الحديثة و الثقافات اليهودية والمسيحية، والاستعمار الذى قاده الأوروبيون فى أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا والشرق الأوسط؛ كما تعرض تاريخ الصهيونية وتطورها، والقوانين الدولية بشأن الحروب و الاستعمار و حقوق الإنسان. إذا كانت مهمة دراسة كل مظاهر المشكلة ـ بكفاءة ـ قد تخيف الباحثين الموهوبين والمتعددى القدرات من الخوض فى الموضوع؛ فإن كل شخص تعنيه هذه المشكلة يجب أن يعتبرها على المستوى الشخصى واجبًا معنويّا. ومع أن فريقًا من الباحثين يكون على الأرجح مؤهلاً للنجاح أكثر من فرد بمفرده، فلن يكون هناك وعى جماعى أو إجماع فى هذا الفريق. إن المسئولية الأخلاقية لإطلاق حكم وتقرير عمل ما تبقى فردية، حيث لا يمكن إطلاق الأحكام بالتناوب أو بالنيابة. فلا يمكن إعطاء هذه المسئولية للآخرين حتى لو كانوا أكثر كفاءةً أو أغزر علمًا أو أرفع أخلاقًا.

وأزعم أن علم اللاهوت يجب أن يهتم بظروف الحياة الحقيقية للناس ولا يمكن أن يغلق على نفسه الأبواب فى جو أكاديمى و كنائسى. سيهتم هذا الكتاب برصد بعض تأثيرات التأويلات اللاهوتية، وتأويلات الكتاب المقدس التى تتعلق بالأيديولوچية الاستعمارية وممارساتها فى مناطق مختلفة وعصور مختلفة. كما سيتطرق إلى سوء استغلال الكتاب المقدس واستعماله كوسيلة لتقنين ممارسة برنامج أيديولوچى أو

سياسى ما؛ تسببت نتائجه فى الماضى والحاضر فى العذاب الدائم والمستمر الذى لا يمكن تحمله، لشعوب بأكملها، بل وحتى فى إبادتهم أحيانًا. إن الاعتراف بالعذاب الذى تسبب فيه الاستعمار يلزمنا بإعادة دراسة الأبعاد الكتابية [من الكتاب المقدس] واللاهوتية والأخلاقية لهذا الموضوع. وأعتقد أن اللاهوتية يجب أن تكون رسالة لتطوير المثل والنموذج الأخلاقى؛ كما يجب أن تؤسس مستقبلاً أفضل للجميع سواء كانوا ظالمين أو مظلومين. وهذه الدراسة موجهة إلى الملتزمين مباشرة بالخطاب الكتابى و اللاهوتى، فهى تهتم ببعض مظاهر التفسير التى تم تجاهلها. كما تعتزم إعلام قطاع أوسع من الناس بمواضيع لها تأثير على رفاهية الإنسان ورخائه، بل وأيضًا على الوفاء والإخلاص لله. و بالنسبة لبعض العلماء، فقد يرون هذه المحاولة على أنها مساهمة أكاديمية مفيدة. أما بالنسبة لى، فهى واجب أخلاقى.

***